شوقى ضيف وعصر الدول والإمارات

د. سعد شلبى

شوقى ضيف خلق سمح وعلم غزير. ابتسامة هادئة، ووجه مشرق..

وإذا كان أبناء الثغر - أى ثغر - يمتازون بالذكاء والصفاء، والفطنة وسرعة البديهة، فأبناء دمياط - بالذات - يمتازون بجوار هذا كله بالوداعة والجد، والعمل والإنتاج، وبالحلاوة أيضًا..

يذيبون حلاوتهم فى أحاديثهم، ويسكبون عذوبتهم فى كلماتهم، فتقبل عليهم، وتسكن إلى رقتهم، وتجدهم مصداق قول شاعر العرب:

وما البر للأضياف أن يكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب

* * *

وعلَّامتنا يجذبك بابتسامته، التى تشيع فى حديثه، وتتراءى على محيَّاه إذا أقبلت عليه أو جالسته.. تأمله فتلحظ الاستدارة الغالبة على ملامحه. فى إبهامه استدارة، وفى أنفه استدارة، وفى وجهه استدارة، فتذكرك هذه الاستدارة بغزارة معارفه، إنها إشارة إلى عمله الذى يدور حول موضوعاته، فلا تدرى من أين يبدأ، ولا أين ينتهى هو حلقه لا يدرى أين طرفاها..!! أو:

هو البحر من أى النواحى أتيته فلجَّته المعروفُ والبر ساحله

تأمل يمناه، وسوف يروعك احمرار أو التهاب يغطى ظهرَ بُنْصره ويزحف على ظهر يده، وذلك من كثرة ما يكتب، ومن كثرة احتكاك هذه اليد - البيضاء - بالورق الناعم الأملس، لتفيض بالعلم، فما أكثر ما يكتب إذًا للآخرين.

يذكرنا ذلك بقولة الرسول ﷺ - لرجل صافحه، فأحَسَّ خشونة يده.. فأطال مصافحته إعجابًا بهذه اليد الخشنة من كثرة العمل قال لرسول: «هذه يد ينبغى أن تقبل».

كذلك يد علَّامتنا التى يوزن مدادها بدماء الشهداء - وقد التهبت من كثرة ما يكتب. ينبغى أن تقبل.

إذا نظرت إليه وجدته: يغض إحدى عينيه، ويفتح الأخرى، إنه يتجاوز عن كل زلة فيغض طرفه عنها، ويحتفل بكل جميل فيمد بصره إليه، ثم هو.. مع هذا وذاك - رفيع الجانب، عالى

المقدار، يُجله الآخرون، ويكنون له المحبة والولاء.

يغضى حيـاء ويُغضَى من مهـابتــه   فــلا يُـكـلـم إلا حــين يــبــتــسـم

* * *

أما الكتاب الذى سوف نقف عنده فهو عصر الدول والإمارات.. الذى صدر فى جزأين:

- استقل أولهما بدول وإمارات الجزيرة العربية - والعراق - وإيران.

- واختص ثانيهما : بدول وإمارات: مصر والشام.

وصدر الجزء الأول فى أول يونيه سنة ١٩٨٠ فى ٦٨٤ صفحة والآخر فى أول أغسطس سنة ١٩٨٤ فى ٨٤٤ صفحة، فهما معًا ١٥٢٨ صفحة عن دار المعارف.

والجزآن يتكاملان، يكاد المؤلف يوحد مقدمتهما، فجاءتا على نسق واحد فى الإشـارة إلى تاريخ العصر وفى عرض قضاياه العامة، فى مجالى الشعر والنثر.

ولا يرجع تفكير العلامة فى هذا المؤلف إلى السنوات القليلة التى سبقته بل إن فكرته كانت فى ذهنه منذ ربع قرن، لأنه وعد بتأليفه فى التقديم لملحقه الأولى من موسوعته التاريخية «العصر الجاهلى» الذى ظهر فى منتصف عصرنا الحديث، ومعنى ذلك أنه نتاج تفكير طويل امتد سنوات وسنوات.

* * *

لقد أتى هذا الكتاب دليلًا على غزارة المادة، وإحاطة المؤلف بالتاريخ الأدبى على امتداد عصوره، زمانًا ومكانًا، بل ومنهجا أيضًا.. إنه يسيطر عليه سيطرة تامة، منهجًا ومضمونًا، فهو - كبقية حلقات موسوعته - يخضع لمنهج العلماء الطبيعيين من الأدباء الفرنسيين أمثال «سانت بيف» فى تقسيم الأدباء إلى فصائل، و«تين» فى إخضاع الأدب لقانون الزمان والمكان والجنس و «برونتير» الذى رأى أن الأدب يتطور ويرتقى كما تتطور الأحياء، مع ملاحظة أن الأدب واحد من الدراسات الإنسانية، وفى الوقت نفسه لم يبطل فكـرة شخصية الأديب ومـواهبه الذاتية.

* * *

بل أننى أعد هذا الكتاب، والموسوعة التاريخية كلها - ما صدر منها ومالم يصدر - ثمرة ناضجة يانعة لبحثى:

- «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى».

- «الفن ومذاهبه فى النثر العربى».

وقد ظهر أولهما فى أبريل سنة ١٩٤٣، وظهر الآخر بعده بثلاثة أعوام أبريل سنة ١٩٤٦.

وفى كل منهما يصاحب الأدب شعره أو نثره فى مسيرة طويلة بدأت فى العصر الجاهلى وانتهت بالعصر الحديث، منتقلاً بين الأزمنة والأمكنة والدول والإمارات فى الأوطان العربية مشارقها ومغاربها.

* * *

وهذا الكتاب «عصر الدول والإمارات..» يبتكر تقسيمًا جديدًا للعصور الأدبية، حيث سمى العصر الممتد من سنة ٣٣٤هـ إلى العصر الحديث - بهذا الاسم، ورفض ما ذهب إليه عامة المؤرخين حيث يدخلون منه ثلاثة قرون فى العصر العباسى الثانى، منتهين به حتى سنة ٦٥٦ حين أغار التتار على بغداد، وحيث كانوا يسمون الحقب التالية حتى الغزو العثمانى لمصر والشام والعراق باسم العصر المغولى، وسموا فترة حكم العثمانيين لتلك البلاد باسم العصر العثمانى. قال:

«كل ذلك تصور مخطئ لأن سلطان الخلافة العباسية تقلص ظلاله منذ سنة ٣٣٤هـ بحيث لا يكاد يبقى للخلفاء العباسيين منه فى كثير من الأمر سوى بغداد.. وكانت إيران بيد بنى بويه.. والبحرين واليمامة بيد القرامطة، والموصل وحلب بيد الحمدانيين.. ومن الخطأ الإبقاء على تسمية القرون التالية لغزو التتار بغداد باسم العصر المغولى بينما كان سلطان المغول فيها لا يتجاوز إيران والعراق دون بقية العالم العربى.. والجزيرة العربية والشام والأندلس»[1].

فالمؤلف بذلك يكشف اللثام عن حقيقة هامة أخطأ المؤرخون السبيل إليها.

* * *

والجزء الخامس من هذا الكتاب يتناول الجزيرة العربية فيعرض الحياة السياسية لأقاليمها، ويبسط الحديث عن مجتمعها البدوى والحضرى، وما كان من نحل شيعية وخارجية، وما شاع فيها من الدعوات الدينية. وما حف بذلك من زهد ونسك.

وصوّر روافد الثقافة وما صاحبها من العلوم اللغوية والإسلامية وصور نشاط الشعر، والشعراء: طوائفهم وفنونهم وأساليبهم، وأبرز ما كان من نشاط فى ألوان الكتابة: ديوانية، وإخوانية، وما انتشر من وعظ ومحاورات ورسائل أدبية.

وصنع مثل ذلك فى إقليم العراق حيث عرض الأحوال السياسية، والأوضاع لاجتماعية للطبقات العليا والدنيا والوسطى، وما كان من أنشطة اجتماعية، وطوابع ثقافية كان من آثارها:

---

(١) انظر عصر الدول والإمارات جـ٥ ص٥.

الندوات الفكرية، والكتابات الفلسفية والطبية والعلمية، والبحوث اللغوية والنحوية والنقدية والدراسات الإسلامية.

ووقف عند الظواهر الشعرية، فبرهن على كثرة الشعر فى العراق كثرة مفرطة وشيوع الرباعيات والموشحات، وعنى بتحديد ما بين طوائف الشعراء من فروق، وما بين الأغراض من ألوان وسمات.

وأشاد بما كان للنثر من تنوع واسع، حيث انقسم إلى فلسفات ومناظرات ووعظ وقصص ورسائل، وترجم لعديد من الكتاب النابهين.

وعلى هذا النحو عرض لدول وإمارات إيران باسطًا الحديث فى السياسة وألوانها، والمجتمع وأحواله، والثقافة وضروبها، والأدباء وطوائفهم والأدب وفنونه وسماته.

* * *

فإذا ما انتقل إلى الجزء السادس - من هذه الموسوعة - سار على النسق نفسه فى الحديث عن الدول والإمارات، فى مصر أولاً ثم فى الشام ثانيًا، وكانت عينه فى هذا الجزء وفى سابقه على ما بين الأقاليم من تواصل فى العادات والتقاليد والمعيشة والدين، وإلى ما كان بينها من اتحاد فى الشعور والفكر.

وقد كان ذلك شعور الأسلاف حيث كانوا يؤلفون للعالم الإسلامى بحيث تجد قطعة شعرية عراقية، بجانب إيرانية، أو موصلية، أو شامية، أو مصرية على نحو ما نجد عند الحموى فى خزانة الأدب، وبهاء الدين العاملى فى الكشكول، والخفاجى فى ريحانة الألباء.. وكأن هذه الدول والإمارات بلد واحد لم تختلف فيه أوطان ولا أزمان.

وفى هذا الجزء أشاد بفضل مصر، وبدورها العلمى الخصب، مما جعل المغرب منذ القرن الثانى الهجرى يحمل عنها قراءة ورش للقرآن الكريم، ومذهب مالك فى الفقه، وجعل الشام والحجاز والمشرق جميعه يحمل عنها مذهب الشافعى.

كما أشاد بالحركة الأدبية والعلمية الواسعة، فيؤلف الصولى كتابًا فى شعرائها، وابن الداية عن أطبائها، وابن يونس الصفدى عن علمائها وتستقبل مصر دعوة الفاطميين، ونشاط الأيوبيين، فكانت ملاذًا للحضارة العربية، وحامية لكل ما اتصل بها من فكر وعلوم وآداب، وعرض ما كان بمصر وأقاليم الشام وإماراته من نشاط فى علوم الأوائل وفى الجغرافيا، وفى علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة، والقراءات والتفسير والفقه والكلام والتاريخ والتراجم.

وذكر حشدًا من الشعراء النابهين فى الشعر الدورى والموشحات، وفى المديح والحكمة والفلسفة، والتشيع، وفى الغزل والفخر والهجاء، وفى الرثاء والشكوى، وفى وصف الطبيعة

ومجالس اللهو، وفى الزهد والتصوف والمدائح النبوية، كما ساق حشدًا من ألوان النثر التقليدية، والمقامات والمواعظ والابتهالات، وألوانًا شتى من أفانين الشعر والنثر.

* * *

ومما يشير إلى سيطرة المؤلف على تاريخ الأدب كله أنه كان يعود ببعض الظواهر - فى هذا الكتاب إلى ما قبل الإسلام، ثم يتدرج بها عبر العصور حتى يشارف العصر الحديث.

صنع ذلك فى التراث اليونانى والعلمى والفلسفى ببلاد الشام: فى القديم ثم كشف عن تجدده وخصوبته فى ظلال الإسلام، ورصد حركة الترجمة لهذا التراث، وبيان مدى العناية التى بذلها المسلمون بعلوم الأوائل من رياضيات وطبيعيات، وطب وجغرافيا ولغة ونحو وبلاغة ونقد.

قلت إن هذا الكتاب بصفة خاصة، وأشقاءه من الكتب التاريخية السابقة يسير فيها المؤلف على منهج واحد ارتضاه لا يكاد يحيد عنه.

إنه يعرض للحوادث التاريخية، السياسية والاجتماعية والثقافية أولاً، ثم يتأنى فى عرض الجوانب الأدبية، فيحدثنا عن الشعر وأغراضه من المديح والرثاء والشكوى.

ثم ينتقل إلى الحديث عن طوائف الشعراء من أهل الغزل والفخر والهجاء ثم شعراء الوصف ومجالس اللهو، ثم شعراء الزهد والفكاهة، ويختم عادة بالشعراء الشعبيين.

ثم يحدثنا عن النثر وكتابه: فيبدأ بالرسائل الديوانية ثم الشخصية، والمقامات ثم المواعظ والابتهالات ويختم عادة بالنوادر والسير والقصص الشعبية.

فإذا تأملته فى منهجه هذا وجدته يجمع الأشباه والنظائر، ويرد الجزئيات إلى كلياتها، والفروع إلى أصولها بحيث تلحظ لها فى نهاية المطاف قواعد عامة وفلسفة شاملة.

ومعنى ذلك أنه حول تاريخ الأدب إلى فكرة أو نظرية، وبعبارة أدق إلى علم قد تحددت مناهجه، وعرفت خطواته، واستقرت قضاياه. فهو - على ما أعتقد - رائد فى فلسفة الأدب: نظرياته ومناهجه.

* * *

وقد تراءى بوضوح فى هذا الكتاب: - وما كان ذلك بالهين أو اليسير، فقد اقتضاه هذا أن يبحر فى العديد من المراجع التى لم تتيسر لغيره، وإن تيسرت فلن يستطيع أن يتعامل معها أو يوظفها على النحو الذى تعامل هو ووظف.

من هذه المراجع: يتيمة الدهر للثعالبى وتتمتها، ودمية القصر للباخرزى وخريدة القصر للعماد الأصفهانى، وكشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار لابن غانم المقدسى، ورسالة النسر والبلبل، وكتاب الاعتبار وكتاب نسيم الصبا، وفاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء، وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب، وتاريخ اليمن وأخبار صنعاء لعمارة اليمنى وكتاب الصليحيين للهمدانى، والدر لابن حجر، وتاريخ ثغر عدن لباخرمة.

وغير ذلك كثير من كتب التاريخ والجغرافيا والثقافة والأدب شعرًا ونثرًا هذا عدا كثير من الدواوين وكتب المستشرقين والمحدثين.

والكتاب - بجزأيه - يفتح أبوابًا لدراسات عليا،ينبغى أن يوجه إليها الباحثون حتى يخرجوا من هذه الدائرة المحكمة التى يدورون فيها، ويستهلكون موضوعاتها، ولا يزالون يلحون فى دراستها، وكأنه ليس فى ساحات البحوث غيرها، إن هذا الكتاب يطرح موضوعات جديدة:

- كالأدب: شعرًا أو نثرًا فى إقليم مثل: اليمن أو حضرموت أو عمان أو البحرين - فى الجزيرة العربية - أو فى الدولة المغولية أو التركمانية أو الصفوية فى العراق، أو الخوازمية أو السامانية أو الزبارية فى إيران.

- وكدراسة فن معين فى هذه الفترة، والكتاب - فى هذا المجال - يطرح موضوعات مثل:

شعر الفلسفة - والشعر التعليمى، والدورى، والرباعيات والموشحات والبديعيات والتعقيدات فى مصر والشام.

- وهناك شخصيات هامة فى مجال الشعر، أو النثر عرف بها الكتاب وأشار إلى العديد من مراجعها أمثال:

أبى الفرج بن هندو، وأبى الفضل السكرى المروزى، وقابوس بن وشمكير والسهرورى، وأبى بكر الفهستانى، من الشعراء،وأمثال العلاء بن الموصلايا، وأبى النصر العتبى، ورشيد الدين الوطواط من الكتاب.

- أو حول كتب معينة كتلك التى تتخذ من النوادر موضوعًا لها مثل كتاب المكافأة وأخبار سيبويه المصرى، والفاشوش فى حكم قراقوش.

* * *

ثم بعد هذا السداد فى الفعل والقول والعمل، نجد علامتنا يتُطامن ويتواضع - وهذا شأنه فى جميع بحوثه - فيقول فى مقدمة الجزء الخامس من هذا الكتاب:

«.. ولا أزعم أننى استطعت أن أوفى هذا الرسم حقه كاملاً فى الدقة والاستقصاء».

ويقول فى مقدمة جزئه السادس:

«.. وأعترف أن كتب الأسلاف غنية غنى وافرًا بالنصوص التى تصور حياة الأدب فى مصر والشام، ولا أزعم أنى صورت تلك الحياة تصويرًا كاملاً، وإنما حاولت ذلك جهدى..!!»

ا. د. سعد شلبى
أستاذ الأدب العربى
وعميد كلية التربية - جامعة طنطا

obeikandl.com